

النزعة النقدية عند الطبيب "أبو مروان ابن زهر" ودورها في تطور الممارسة الطبية بالأندلس.

The critical tendency of Abū Marwān Ibn Zahr and its role in the development of medical practice in Andalusia

أمال علام¹، جامعة الجيلالي الياصب سيدي بلعباس (الجزائر)، amel.allam@univ-sba.dz

سعدي شخوم، جامعة الجيلالي الياصب سيدي بلعباس (الجزائر)، shakhoum@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022/02/15

تاريخ القبول: 2022/01/31

تاريخ الاستلام: 2022/10/08

الملخص:

تطورت المعرفة الطبية منذ ظهورها في الأندلس بفضل مناهج النقد والتصحيح التي انتهجها عدد من الأطباء الأندلسيين، ليخرجوا الممارسة الطبية من المنظور التقليدي إلى منظور علمي له قواعد، وأسس علمية، وسنخس بالذكر من خلال هذا البحث أحد الأطباء الأندلسيين الذين تميزوا بالنزعة النقدية التصحيحية التي ساهمت في تطور الممارسة الطبية، ومناهجها؛ وهو الطبيب أبو مروان بن زهر، الذي انفرد بهذه الميزة وكانت له من خلالها اسهامات علمية ساهمت في تطور المعرفة الطبية بالأندلس وارتقت الى مصاف العالمية حيث شكلت آراؤه الطبية وانتقاداته نقطة انطلاق للعديد من الدراسات الطبية التي مكنت الطب الأندلسي من شغل مكانة مرموقة في الطب العالمي وشغلت انجازاته المؤلفات العربية والأجنبية. فمن خلال هذا البحث نهدف الى الوقوف على أهم الآراء الانتقادية التي طالت بعض النتائج الطبية في الأندلس بصفة عامة، وآراء الطبيب ابن زهر بصفة خاصة.

كلمات مفتاحية: الأندلس؛ ابن زهر؛ المعرفة الطبية؛ النزعة النقدية.

Abstract:

Medical knowledge had developed since its emergence in Andalusia thanks to the methods of criticism and correction adopted by a number of Andalusian physicians, to take medical practice from the traditional perspective into a scientific one based on rules and scientific foundations.

This research discusses the distinguished Andalusian doctor Abū Marwān, known by his critical and corrective tendency that contributed to the development of medical practice and its approaches. The latter was typically known for the feature through which he had scientific achievements that contributed to the development of medical knowledge in Andalusia that reached the world. Moreover, his medical opinions and criticisms were a starting point for many medical studies that enabled Andalusian medicine to reach a significant position in international medicine, and his achievements influenced Arab and foreign writings too. Through this research, we aim to study the most important critical opinions that affected some medical findings in Andalusia in general and the opinions of the doctor Ibn Zahr in particular.

Keywords: Andalusia; Ibn Zahr; Medical knowledge; critical tendency.

¹ أمال علام، جامعة الجيلالي الياصب سيدي بلعباس، مخبر الجزائر والحوض الغربي للمتوسط، amel.allam@univ-sba.dz

1. مقدمة:

شغلت المعرفة الطبية في الأندلس الإسلامية مكانة مرموقة في العالم الإسلامي، وخارجها، وذلك بعد أن استفادت من مجموعة من المقومات أسس لها الأطباء الأندلسيون بالاستناد إلى مؤلفات سابقهم في هذا المجال، ودراستها، ونقدها.

فكان المنهج النقدي، والتجريبي أحد المقومات الأساسية لتطور هذه المعرفة التي جعلت منها معرفة منفتحة على الدراسة السابقة، بعد أن انكب العديد من الأطباء الأندلسيين على كتب اليونانيين الوافدة إلى الأندلس سواء في شكلها الأصلي، أو ما عبر إليها مترجما من المشرق الإسلامي، بالجمع، والدراسة، والنقد، فأفادوا منها خاصة فيما تعلق بالجانب النظري، وأضافوا عليها، حيث لم يتقيد الطبيب الأندلسي بما اطلع عليه، بل زاد عليه ما اكتسب من خبرات في هذا المجال، غير مهملين الجانب التجريبي الذي كان له دور هام في تطور الممارسة الطبية بها، كما أنهم لم يهملوا مؤلفات بعضهم الطبية، فلم يتردد بعض الأطباء من انتقاد مؤلفات معاصريهم بعد الاطلاع عليها.

اشتهر عدد كبير من الأطباء داخل الأندلس، وخارجها، وكانت لهم إسهامات كبيرة في علم الطب، غير أن البعض منهم لم يتردد في اتخاذ منهج طبي خاص به ميزه عن غيره من الأطباء بالاعتماد على التجريب، والتحلي بنزعة نقدية تصحيحية إيجابية كان لها الأثر الكبير في تطور المعرفة الطبية في الأندلس على غرار الطبيب أبو مروان بن زهر الذي غدا يعرف برائد النقد والتجريب في الأندلس.

تتمحور إشكالية هذا البحث حول تمثيلات النزعة النقدية التي انتهجها الطبيب أبو مروان بن زهر، ودورها في تطور المعرفة الطبية بالأندلس :

- فما هي مظاهر المنهج النقدي عند الطبيب أبو مروان بن زهر؟

- ما مدى إسهامه في تطور الممارسة الطبية في الأندلس؟

ومن خلال هذه الدراسة سنسلط الضوء على منهجه الطبي، ومدى إسهامه في تطور الممارسة الطبية بالأندلس معتمدين على المنهج التاريخي السردى بما يتطلبه موضوع البحث.

نهدف من خلال هذه الدراسة إلى الوقوف على جزئية هامة من تاريخ العلوم في الأندلس، وهي مذاهب النقد التي سلكها عدد من أطبائها، وبدأت واضحة من خلال تراثهم الفكري الذي لخص ثمرة تجاربهم الطبية، كما نهدف إلى التعريف بشخصية مميزة من شخصيات الطب الإسلامي عامة والأندلسي خاصة، والتي كانت لها بصمة واضحة وهامة في تاريخ الطب الإسلامي، وهو الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر من خلال محاولة الوقوف على أهم مواقفه الانتقادية التي دفعت بالمعرفة الطبية إلى التطور ضمن مشروع علمي شامل ومتطور شهدته الأندلس خلال الفترة محل البحث.

2. الحركة الطبية وتطور منهاجها في الأندلس:

تطورت المعرفة الطبية في الأندلس ضمن مشروع النهضة العلمية الذي شهدته البلاد خلال القرن الخامس الهجري/11م، كجزء من الحركة العلمية، وكغيره من العلوم كان الطب الأندلسي مرتبطا بظهوره في العالم الإسلامي وكانت بداية هذه الصناعة فيه عن طريق ترجمة كتب الطب اليونانية الأولى ككتب أبوقراط¹ وجالينوس²، واللذان يعتبران أبا الطب اليوناني، وبدأ ذلك مع اسحاق بن حنين³ الذي ترجم عددا كبيرا من كتب جالينوس إلى العربية، فأنقذ بهذه الترجمات تراث الطب اليوناني من الاندثار⁴.

غير أن هذه الترجمات وعلى أهميتها لم تساهم كثيرا في تطور الطب في الأندلس فقد كانت بداياته محتشمة واقتصرت في بادئ الأمر على قراءة الكنائش المؤلفة في فروعها دون الكتب المصنفة في أصوله مثل كتب أبوقراط وجالينوس. إلى أن برز عدد كبير من الأطباء خلال العصر الأموي فوضعوا الأسس الأولى لمعرفة طبية قائمة على أسس علمية، خاصة منذ بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بعد أن قرأوا كتبها على مراتبها، و تعمقوا فيها كالطبيب أحمد بن إياس والحارثي، وابن الكناني، وغيرهم⁵.

وقد ساهمت عدة عوامل في تطور هذا العلم من بينها جمع نواذر الكتب، وهي عادة دأب عليها الأندلسيين وحكامهم فقد تنافسوا في جمع خزائن الكتب، فهذا الحكم المستنصر كان "حسن السيرة جامعا للعلوم محبا لها، مكرما لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك"⁶، ولم تكن الكتب تجمع في الأندلس للتفاخر أو التكديس، فقد انكب عليها بالمطالعة والتصحيح والتذييل والنقد، وهذا ما أسهم في تطور العلوم بها.

وقد بلغ الهوس بجمع الكتب والتعلق بها مبلغا عظيما في الأندلس فهذا أبو حفص عمر بن عبيد الله الزهراوي (ت 454هـ/ 1062م) يعبر عن حسرته بعد ضياع كتبه خلال الفتنة القرطبية قائلا: "شددت في داري بالربض الغربي ثمانية أحمال من الكتب لإخراجها إلى مكان غيره، ولم يتم لي العزم حتى انتهها البربر"⁷

كما عملت السلطة على توجيه الحياة الفكرية خلال هذه الفترة فقد عمل الحكام على إقامة المجمع اللغوية، والتشجيع على جمع الكتب وتحقيقها، كما عملوا على جلب المترجمين والعناية بهم، فقد ذكر أنه في عهد الحكم تم ترجمة كتاب "الحشائش" لديسقوريدوس تحت إشراف الأمير نفسه الذي كون فريقا أندلسيا لدراسة الكتاب والتحقق من مادته العلمية بطريقة ميدانية إجرائية⁸.

و خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/11م-12م استمدت الممارسة الطبية في الأندلس مقوماتها من البيئة المعرفية المزدهرة التي ميزتها خلال هذه الفترة، مستفيدة من حقول معرفية أخرى، في إطار تداخل معرفي خدم الحركة العلمية الأندلسية بصفة عامة، حيث استفادت الممارسة الطبية في الأندلس من هذا التداخل، كما استفادت من العلوم الوافدة إليها من الأمم السابقة، فلا يمكن القول بأن علم الطب كان من ابتكار الأندلسيين، أو المسلمين، فهو من العلوم الوافدة على الحضارة العربية الإسلامية من الحضارة اليونانية، بعد أن تأثر العلماء العرب باليونانيين، والرومان في هذا المجال وقلدوهم وهو ما أشار إليه ابن أبي صبيعة في قوله: "بعضهم يقول أن الطب خلق مع خلق الإنسان إذ كان أحد الأشياء التي بها صلاح الإنسان، وبعضهم يقول وهم الجمهور أنه استخرج بعد، وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين: فمنهم من يقول إنّ الله ألهمها الناس، وأصحاب هذا الرأي على ما يقول أبوقراط وجالينوس وجميع أصحاب القياس....ومنهم من يقول إن الناس استخرجوها وهؤلاء قوم من أصحاب التجربة والحيل، وهم أيضا مختلفون في الوضع الذي استخرج به"⁹.

يتضح من خلال قول ابن أبي صبيعة هذا أن للممارسة الطبية ثلاثة آراء لكل منها أنصارها :

1/ أصحاب القياس: يتوقف العلاج في نظرهم على معرفة العلة ويقاس عليه العلاج، ومعرفة العلة بدوره لا يتحقق إلا بالفحص أو التشريح لمعرفة تراكيب الجسم وأعضائه ودراسة وظائفها¹⁰.

2/ أصحاب التجربة: ظهرت بالإسكندرية مدرسة طبية عرفت بالمدرسة الإمبريقية، روادها أنصار فيلنوس

(ت 280 ق م)، وهم أوائل أنصار التجربة، وفي نظرهم أن: المرض ليس هو ما يهيم الطبيب، بل العقار الذي يذهب هذا المرض، وكذا طرق الشفاء¹¹

وقد كان جالينوس لا يفرق بين التجربة والخبرة الحسية، فكان يستخدمها بمعنى واحد، وتظهر ميوله التجريبية في قوله: "إن التجارب لا حاجة لها بالقياس...إن القياس لا منفعة فيه لصناعة الطب"¹²

3/ أصحاب الحيل، أو أصحاب الطريقة، جمعوا بين الطب وأقوال الطبيعة¹³.

ومن أنصار القياس في الأندلس أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرباعي¹⁴ "كان، يناظر أهل الطب والتنجيم في دقائق معانهم ولطائف مسائلهم وذلك للطف حسه وصحة خاطره وحذقه بأعمال القياس على أصله"¹⁵.

وأما من أهل التجربة حمد بن أبان "كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان طبيباً حاذقاً مجرباً وله بقرطبة أصول ومكاسب"¹⁶.

وقد ساهمت هذه الإتجاهات في تطوير الحركة الطبية بشكل كبير إضافة إلى أن هذه الأخيرة تطورت بالتوازي مع التحولات البنيوية للعلوم التجريبية بها، فبذلك نحن أمام منظومة فكرية متناسقة المرجعية والتصورات كان لزاماً على أطباؤها التصدي لها، ومواكبتها، غير أن الممارسة الطبية القائمة على المنهج العلمي تعارضت مع طب موازي تمثل في العلاج الشعبي المعتمد على السحر، و التنجيم، والمداواة بالأعشاب وفي بعض الأحيان اللجوء إلى عادات شعبية تكون ضارة للبدن أكثر من نفعه¹⁷.

لذلك يمكن القول أن الممارسة الطبية في الأندلس ارتكزت على مجموعة من المقومات ساهمت في تطور المنظومة الصحية بها، أهمها النقد، والتجريب، واللذان أسس لهما ثلة من الأطباء الأندلسيين أبرزهم أبو مروان ابن زهر (ت557هـ)، الذين تطلعوا من خلال هذه المقومات إلى إعادة بناء منهجي للممارسة الطبية في إطار منظومة معرفية سليمة قائمة على النقد لإقصاء الممارسات الشعبية في التداوي، وبالغوا في نصح العامة بالامتناع عن اقتناء الأدوية والأعشاب من غير المتخصصين، حتى صار ذلك من المحظورات " لا يبيع الشراب ولا المعجون، ولا يركب الدواء إلا حكيم ماهر، ولا يشتري ذلك من عطار ولا شرابي، فإنهم حريصون على أخذ الثمن بلا علم"¹⁸، وذلك للإلتقاء بالمنهج العلمي القائم على التجريب الذي يتضمن أصول الصناعة.

ولمواكبة التطور الطبي، استعان الأطباء الأندلسيين على منهج الاستقراء في إثبات القواعد، والمبادئ لأن المعرفة الطبية في نظرهم استمدت منهجها من علم المنطق، خاصة ما تعلق بالقياس والبراهين، فمن وجهة نظرهم أن الجاهل بعلم المنطق لا يحق له النظر في علم الطب القائم على القياس، والبرهان، كما تشددوا في انتقاد، ومعاتبة مرتكبي الأخطاء الطبية وصلت إلى حد المتابعة والسجن لأن في ذلك خطر على حياة الإنسان " ... لا سيما صناعة الطب الذي فيه اتلاف للمنهج، وخطأ الطبيب يستره التراب"¹⁹.

لذلك يقول ماكس مايروف: " نحن أمام مدرسة طبية أندلسية اكتسبت أسسها مما أسس له أعمدتها من معرفة قائمة على الموضوعية، ومنهج تجريبي في تاريخ الطب والصيدلة الإسلاميين، وذلك ما يظهر من خلال الأدبيات الطبية والصيدلانية المليئة بالنقد والتعديل"²⁰. وهذا ما يعكس انفتاح الأطباء الأندلسيين على المنهج العلمي، طامحين إلى إزاحة بعض الممارسات الشعبية والعادات المتوارثة التي تضر أكثر مما تنفع، وعليه يمكن القول أن المنهج العلمي القائم على النقد أخرج الممارسة الطبية بالأندلس من منهج التنظير الذي قامت عليه في البداية وارتقى بها حتى أصبح الطب أهم المهن وأشرفها في الأندلس.

3. التعريف بأبي مروان ابن زهر (ت 557هـ/1162م)

حظيت عائلة بنو زهر لفترات طويلة بالأندلس بمكانة مرموقة وشهرة واسعة في مجال العلم، خاصة في الطب و التدوي، و الأدب، فالطبيب أبو مروان بن زهر يعد امتدادا لرافد علمي عائلي يمتد إلى قرنين من الزمن، فأبوه هو أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الإيادي الأندلسي، اعتمد الاستقصاء في الأدوية، واشتهر في الأندلس وخارجها خدم المرابطين ونال في عهدهم حظوة كبيرة، ويذكر المقرئ أنه كان شاعرا بارعا أيضا، ارتحل إلى المشرق، و تولى رئاسة الطب ببغداد، ومصر والقيروان، ثم عاد إلى الأندلس واستقر بمدينة دانية، وكان بارعا في علم الطب مشهورا به²¹.

وهو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن محمد بن زهر، لحق بأبيه في صناعة الطب، وأجاد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، وكان بارعا في الطب حتى ذاع صيته في الأندلس، وخارجها، نافس أطباء عصره ووضع عددا من المصنفات اشتغل أطباء الأندلس بها²²، وكانت وفاته سنة 557هـ/1162م، ودفن في اشبيلية خارج باب الفتح²³.

1.3 أشهر مؤلفاته:

- كتاب التيسير في المداواة والتدبير: ألفه للقاضي أبي الوليد أحمد بن محمد ابن رشد²⁴، وهو من أهم آثار ابن زهر الطبية، وفيه عرض العديد من الأمراض، و العلل، و أعراضها؛ كتشقق القدمين، و الأيادي، و الأمراض الباطنية كأمراض البطن، و المعدة، و الرثتان و أمراض الرحم، و أسباب العقم، وغيرها من الأمراض²⁵.

كما أنه لم يهمل الجانب النفسي في مؤلفه هذا، حيث أبرز مدى تأثير الحالة النفسية على صحة الإنسان، وسرد في هذا السياق طرقا علاجية عديدة للحفاظ على السلامة النفسية من بينها النظام الغذائي، و المشي²⁶.

وقبل أن يتطرق ابن زهر لمرض ما في كتابه التيسير، يعرف بهذا المرض أولا، ثم يذكر أسبابه و يستعرض أعراضه، ثم ينتقل بعدها لوصف الدواء المناسب له، و طرق علاجه، و هو يفضل العلاج الغذائي على التدوي بالأدوية، لأنه أنسب للجسم في رأيه²⁷.

- كتاب الأغذية و الأدوية: ألفه بأمر من الخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي²⁸، ومنه نسختان بالخزانة الحسينية بالرباط²⁹، و هو مؤلف في علم الأغذية حسب فصول السنة، فيذكر فيه مختلف أصناف الأغذية و الحبوب التي تتوفر على مدار السنة حسب فصول نموها، مبينا منافعها ومضارها . وبالرغم من أن عنوان هذا المؤلف جاء منحصرًا في مجال الأغذية، إلا أن ابن زهر تطرق فيه إلى فوائد النوم المنتظم، و الاستحمام، ومواد الزينة، و الأهوية ومسكن الاستقرار وتأثيرها على صحة البدن، كما عرض فيه أنواع الأوبئة، و بذلك يعد الطبيب ابن زهر من الأطباء الذين يشددون على ضرورة الوقاية و اتباع الأنظمة الغذائية الصحية وذلك في نظره خير من العلاج للحفاظ على سلامة البدن³⁰.

بالإضافة الى هذين المؤلفين ألف ابن زهر كتابه الزينة، و يذكر الأستاذ العربي الخطابي أنه من مؤلفات ابن زهر المفقودة إضافة الى رسالته في علتي البرص و البهق³¹.

وله تذكرتين لابنه أبي بكر الأولى في أمر الدواء المسهل تناول فيها طريقة الأطباء في تشخيص الأمراض و الأخطاء التي يقعون فيها، وكذا المنهج الذي يتبعه الطبيب في وصف دواء مريضه حسب مزاج هذا الأخير، ثم يختم هذه المقالة بذكر الأمراض الشائعة في وقته ، و أخرى في أول ما تعلق بعلاج الأمراض، كما ألف مقالة في علم الكلى وقد ترجمت إلى اللاتينية³².

2.3 المنهج الطبي عند ابن الزهر:

قسم ابن الزهر علم الطب الى قسمين: القسم الوقائي وسماه الزينة، والقسم العلاجي واصطلح عليه الطب موافقا بذلك اصحاب المذهب الوظيفي³³.

يشرح الزينة فيقول: " متى حفظ الإنسان شعر الحواجب عن السقوط اليس في هذا معونة في العين في فعل فعلها الطبيعي فقد بان إذ أن طريق الزينة من أعظم أجزاء الطب"³⁴، ثم يضيف في موضع آخر قائلا: "ومن زعم أن طريق الزينة لا خير فيه، أو هو دواع إلى شرف قد كفر من حيث لا يشعر"³⁵

كما يغلب الجانب الوقائي على الجانب العلاجي فيورد في كتابه التيسير مجموعة من الإرشادات الصحية التي تحفظ الصحة وتديمها كقوله: "الطب انما جعل لتبقى به طبيعة الانسان على حالها سالمة"³⁶.

أما منهج البحث الطبي عنده يتم بالبحث والنظر، ويشرح ذلك في كتابه الأغذية فيقول: "إنما مدار أمرنا على التجربة والقياس"³⁷، ويضيف في موضع آخر من نفس المؤلف "...جراحات البطن وصانع اليد كفيل بعمل ذلك وإنما أعرفه علما لا عملا"³⁸، ويقصد بصانع اليد الجراح العالم بالتشريح مع انه يعترف بعدم ممارسة التشريح بقوله: "أما الطريق العملي فإني لا أعرف أجزائه ولا باطشت شيئا من ذلك ولا عاينت تشريحا فإني متى رأيت الجراحات ضعفت نفسي حتى كاد أن يغشى علي، ولا رأيت قط مادة إلا وتهومت معدتي، وربما تقيأت"³⁹، ويفضل أن يكون ذلك من اختصاص أعوان الطبيب إذ يقول: " أما محاولة ذلك باليد، فهو من أعمال بعض الخدمة للطبيب...أما الطبيب فمن شأنه أن أن يدبر بالأغذية والأدوية أمر المريض"⁴⁰

لم يكن الطبيب ابن زهر يقرب بشيء، أو يعتمد علجا سمع به، أو قرأه حتى يخضعه للتجربة و الإختبار، مستعملا جميع أدوات المعرفة الحسية بالرؤية واللمس، والفحص، حيث يشير إلى ذلك قائلا: " وما ذكرته بالصحة شهدت التجربة لي به"⁴¹.

إذن يمكن القول أن تحصيل الطب عند ابن زهر يكون بالعلم والعمل، دون إغفال أحدهما، فهو قد حدد مذهبه الطبي بأنه ليس من أصحاب القياس، ولا من أنصار التجربة الخالصة، بل الجمع بينهما

4. النزعة النقدية عند ابن زهر:

انفرد ابن زهر بأسلوب متميز من خلال النزعة النقدية و الفاحصة إلى ما وقع بين يديه من كتب الطب، فابتعد عن تقليدها، أو التسليم بما جاء فيها، إذ " لم يقتد فيه (التيسير) بما وصل إلى الأندلس من الكتب الواردة إليها من الشرق"⁴²، ولم يكرر المصطلحات الطبية اليونانية، وإنما استعمل مصطلحات مشتقة من لغة قومه، سواء كانت من لغة المثقفين أو كانت من اللغة الدارجة على لسان الناس في زمنه⁴³، وقد ذكر أن أحدهم أهده كتاب القانون لابن سينا، فلما تأمله أهمله ولم يدخله خزانتة⁴⁴، في حين يتجلى مدى اطلاعه عليه والاهتمام به من خلال رؤية ابن زهر النقدية لهذا الكتاب، فالرغم من أهميته في تاريخ المعرفة الطبية، إلا أن ابن زهر لم يتردد في " عرض الكثير من المسائل التي تناولاها وأشبعها درسا وتفنيدا"⁴⁵، وهذا ما يفند القول السابق بأنه أهمل الكتاب وأعرض عنه، حيث يظهر من خلال آرائه النقدية له تعاملًا علميًا ناضجًا معه، وهذا ما يتوافق مع شخصيته البارزة من خلال مؤلفاته.

أما فيما يخص البيئة العامة للتداوي في الأندلس على عصره فقد أورد ابن زهر مثالا عن جهل الناس، و أطباء زمانه بين ما هو علم غيب، وما هو في حدود العلم البشري، وكيف يخلطون بين مسائل الطب ووسائل العقيدة، إذ يقول في كتابه الاقتصاد: " وإنا وقت فيه جهالة أهل هذه الصناعة، أن يحضروا فقبل كل شيء يتأكدون إلى أمر له بشرب دواء كذا، ومشروب كذا من غير أن يفهموا الأمر على وجهه..."، " ...فإن ساءهم السؤال قالو: ليس ذلك في قوة الصناعة، وإنما شبه هذا طريق التكهّن"⁴⁶، وفي موضع آخر يشرح الطبيب ابن زهر مفهوم البحران وكيفية حدوثه: " وقولنا بحران إنما نريد به حركة عظيمة تكون من قوى البدن في دفع الخلط الممرض بقدره الله"⁴⁷، ويشترط أنه لكل بحران يوم إنذار يقابله حتما، أو ما يصطلح عليه علميا بتقدمة المعرفة، وهو في أيام محدودة من الشهر أشار إليها ابن زهر في العديد من مؤلفاته، وفي هذا السياق ينفي ابن زهر أن يحدث البحران بصفة اعتباطية، أو صدفة بل يؤكد أنها تحدث في أيام معينة⁴⁸.

وباعتراض نظرية الصدفة في حدوث الإنذارات والبحران يعترض ابن زهر على نظرية أبوقراط الذي ذهب إلى أن كل شيء في الكون مقدرًا على سبعة أجزاء بما فيها البحران " فإنها تجري مجرى القمر في فلكه، ويتوقع الفرج في الأمراض في دور الشمس وأرباع الشهر"⁴⁹، وقد وضع ابن زهر أسباب خطأ أطباء زمانه في معرفة حقيقة يوم البحران الجيد من البحران الرديء، إذ يرجع الأمر إلى خطأ في تحليل العلامات والدلالات، أو إلى إخفاء المريض الحقيقة عن الطبيب⁵⁰.

كما انتقد الطبيب ابن زهر الأطباء اليونانيين الذين نصحوا ببذر الملح على جسم المولود ليصلب جلده، ويحتمل الهواء المحيط به، حيث قال: " وأما أنا فلا أرى ذلك نافعا، الملح يلذعه ويضر به، وربما أسهره...إن الطفل مثل الجبن الطري، فهو إذن لا يحتمل الألم ولا السهر، والسهر يجففه ويذبله، فأرى أن الملح لجسمه غير موافق، ويظهر لي أن سوى الملح في ذلك خير منه مثل دهن حب البلوط ففيه من التصلب الحاجة، وهو مع ذلك لا يلذع ولا يؤذي ولا يسهر"⁵¹

وعلى الرغم من أن الطب الأندلسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطب اليوناني، فهو وليد عنه، أو امتداد له، حتى أن الكثير من المؤرخين الذين اهتموا بتراث الطبيب ابن زهر يؤكدون على مذهبه مذهب اليونانيين في صناعة الطب، غير أن ذلك لم يمنعه من انتقاد جالينوس، وكل من قلده من أطباء وفلاسفة عصره قائلاً: "وقد كان جالينوس يجهل أشياء من أسباب ما رآه عياناً، وقال في مواضع كثيرة إنه كان يقول فيما كان لا يعرف، أما غيره من الأطباء والفلاسفة فإنهم طمحت بهم همهمهم، وعظمت عندهم أنفسهم عن جهل شيء فتكلموا فيما هو أعلى وأشرف من أشرف من أذهان البشر، فوقعوا فيما لم تكن حاجة إليه"⁵²، وحسب رأينا كانت هذه الانتقادات نابعة من نظرة ابن زهر إلى علم الطب على أنه علم قائم بذاته، قائماً على أسس علمية وتجريبية غير منفصلة عن المنطق، فالأطباء الأندلسيين لم يعتمدوا على الاستقراء إلا من حيث أهميته في المساعدة على إثبات المبادئ والقواعد، لأن المعرفة الطبية عندهم استمدت مقدماتها النظرية، وكلياتها المنهجية ونتائجها التجريبية من علم المنطق خاصة ما تعلق بالقياس والبرهان⁵³، ومنفصلة عن باقي المعارف كعلم الفلك، والفلسفة، والتنجيم؛ على الرغم من التقاء العلوم في نقاط معينة، وبذلك يكون الطبيب ابن زهر من الأطباء الأندلسيين الأوائل الذين أسسوا لعلم الطب كعلم مستقل له مناهجه العلمية الخاصة به.

وفي موضع آخر انتقد ابن زهر التراجع الذي عرفه الطب خلال عصره قائلاً: "...وكان يحذر من ذلك عدد آخر كثير من أطباء هذا الوقت الذي غلبت فيه على الناس البطالة"⁵⁴.

- لا يمكن القول أن ابن زهر هو من أسس للمنهج النقدي في مجال الممارسة الطبية بالأندلس، فقد حفظت المصادر التاريخية عدداً من الانتقادات التي طالت بعض المؤلفات الطبية، أو ممارسات علاجية لبعض الأطباء، وبدأت هذه النزعة ماثلة في التأليف التي خصصها أصحابها لنقد تأليف أخرى سابقة لها أو معاصرة لها، أو عن طريق تصاريح مباشرة في مجالس علمية. ككتاب الإقتصار والإيجاز في خطأ ابن الجزار، لصاحبه عبد الرحمن بن اسحاق بن هيثم القرطبي، انتقد فيه ابن الجزار (ت369هـ/979م)⁵⁵، كما ألف ابن جليل (ت بعد 384هـ/995م) رسالة التبيين فيما غلط في بعض المتطبيين.⁵⁶

- أدت النزعة النقدية التي تبناها بعض الأطباء المنظرين للممارسة الطبية في الأندلس، إلى الانفتاح على الدراسات الطبية السابقة، والاطلاع عليها ومن ثم نقدها، وهذا لا يعني أن المشتغلين في الطب الأندلسي أقصوا هذه المؤلفات والتجارب، بل زادوا عليها، وصححوها ما وقفوا عليه من أخطاء فيها، فقد شمل هذا النقد المؤلفات اليونانية، والعربية على حد سواء، بل تعدتهم إلى العادات العلاجية المنتشرة في المجتمع الأندلسي آنذاك، وحتى بعض التجارب الطبية للأطباء الأندلسيين، مع التشديد على ضرورة التجريب قبل اعتماد العلاج تفادياً لأي مضاعفات صحية، مما أدى إلى بروز معرفة طبية متكاملة الأصول منفتحة على النقد ومتقبلة له من جهة، وترسيخ المنهج التجريبي القائم على قواعد علمية مع إقصاء العادات التنجيمية والخرافية في العلاج من جهة أخرى.

5. خاتمة:

- حظيت المعرفة الطبية في الأندلس بمكانة هامة في الطب العالمي والإسلامي على حد سواء باعتمادها على عدّة مقومات، وركائز مستفيدة من منظومة فكرية ذات حركية مستمرة، ومواكبة للتجدد في مختلف العلوم، وأطر مرجعية أسست لعلم الطب بها، ومن أهم مميزات المعرفة الطبية في الأندلس أنها لم تقف أمام هذا العلم الوافد وقلدته، بل أسهمت فيه اسهاما فعالا حتى غدت البصمة العربية الإسلامية واضحة في معالم الطب الأندلسي، والعالمي بل حتى أنها أسست لمدرسة طبية أندلسية خاصة، استقلت عن نظيرتها المشرقية، وسابقتها اليونانية، وذلك بفضل ثلة من الأطباء الأندلسيين الذين استعانوا بمناهج النقد والتجريب، وغيرها

- برز عدد من الأطباء الأندلسيين الذين ساهموا في تطور الممارسة الطبية بها، من بينهم الطبيب أبو مروان بن زهر، وهو ينتهي إلى أسرة علمية قدمت على مدى أجيال متعاقبة علماء وأدباء، وأطباء كان لهم أثر كبير في ازدهار الحركة العلمية بالمشرق والمغرب الإسلاميين.

- حاولنا من خلال هذا البحث تبين المنهج الذي سار عليه ابن زهر، ومدى اسهامه في علم الطب، فحررت جهود الطبيب ابن زهر الحثيثة في مجال التجريب المعرفة الطبية الأندلسية من النمط النظري المشرقي الذي كان معمولاً به في مجال الشؤون الصحية، ليرسم معالم مدرسة طبية أندلسية فريدة ذات اتجاهات تجريبية.

- عايش الطبيب ابن زهر بيئة فكرية متناقضة، سادها التجديد والرجعية، فعملت الأولى على القضاء على الثانية، لينظم إلى هذا المشروع التوجيهي، والإرشادي الذي ظهر جليا في مؤلفه الأغذية الذي انتقد فيه بشدة بعض العادات التقليدية والمتوارثة في التطبيب وعرض سلبياتها وانعكاساتها على صحة الإنسان، كما شدد على ضرورة الاتجاه نحو الطب العلمي والمحافظة على الأنظمة الغذائية الصحية.

- بالرغم من المنهج التجريبي الذي سار عليه ابن زهر، واعتبر من رواد تركيب الأدوية المفردة، إلا أنه كان يفضل التداوي بالأغذية لفائدتها الصحية.

- لم تكن إرادة توجيه المجتمع إلى تقبل المنهج العلمي، وعزله عن العادات العلاجية السيئة السائدة من مهام السلطة، فتولى ذلك العلماء، والأطباء، وحتى الفقهاء، لما شكلته هذه العادات من خطر على النفس البشرية.

- لا يمكن الطبيب بلوغ مستوى المهارة في مجال الممارسة الطبية في نظر ابن زهر بدون اتباع منهج التجريب، كما شدد على العلاج الوقائي، وجعله جزء لا يتجزأ من علم الطب، وطمح إلى أن يصبح هذا العلاج ثقافة اجتماعية بديلة لعادات التداوي البعيدة عن العلم السائدة

- بالرغم من أن الطبيب ابن زهر لم يباشر التشريح، إلا أنه جعله من ضروريات تطور الاكتشافات الطبية، غير أنه جعل مهمة التشريح من مهام مساعد الطبيب لا الطبيب.

- تمكن الطبيب ابن زهر بفضل براعته في صناعة الطب من الولوج إلى بلاطات متعاقبة حصل من خلالها على امتيازات كبرى، فضلا عن الحظوة الكبيرة التي تمتع بها. فقد خدم المرابطين زمنا معينا ثم تحول إلى خدمة الموحيدين بعد أن آلت أمور الأندلس إليهم.

- أفاد ابن زهر من خدمته في بلاط عبد المؤمن بن علي، ومن الامتيازات التي خصه بها، فانعكس ذلك على ابداعاته في مجال علمه.

- لخص الطبيب ابن زهر ثمره تجاربه الطبية وحنكته و طول باعه في صنعة الطب في مجموعة من المؤلفات الهامة التي كان لا يستغنى عنها في هذا المجال وخارجه، سواء من قبل أطباء زمانه، أو اللاحقين، أو من قبل المؤرخين الذين أجمعوا على أهميتها العلمية التي تجلت في محتوياتها العلمية التي صنفها وفق منهج واضح ومبسط، فتعدى بذلك تأثيرها البيئة الثقافية العربية الإسلامية إلى البلاد الأوروبية.

- يمكن القول أن الطبيب أبو مروان بن زهر من أهم رواد الممارسة الطبية، ذوي النزعة النقدية التصحيحية، كما أنه اشتهر برائد التجريب في الأندلس.

6. الهوامش (الإحالات):

- ¹ يعتبر أبقراط أب الطب اليوناني، تعلم الطب على والده وأستاذه هيروديوكس السليميري، له عدة في مؤلفات في الطب ترجم معظمها للغة العربية منها كتاب المسائل، مقدمة المعرفة والأمراض توفي سنة 357 ق.م تقريباً، ينظر: أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأنديسي، طبقات الأمم، تح: لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للياسوعيين، 1912، ص 28، وأيضاً: ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص 400.
- ² هو طبيب يوناني، أحد أعظم أطباء اليونان، درس الطب والفلسفة، أحدث ثورة في مجال الطب بعلم التشريح توفي سنة 216 ق.م، ينظر: ابن النديم، المصدر السابق، ص 288، جورج شحاتة القنواطي، تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط، مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة، 2017، ص 103.
- ³ هو أبو يعقوب اسحاق بن حنين، من المهتمين بكتب الحكمة، كان فصيحا له فضل نقل الكثير من الكتب القديمة وله غيرها كتاب الأدوية المفردة على الحروف، تاريخ الأطباء، وكتاب الكناش اللطيف، توفي سنة 298 هـ/910 م، ينظر: ابن النديم، المصدر السابق، ص 415.
- ⁴ جعفر يايوش، "فلسفة الطب ومنهج البحث فيه عند الأطباء الأنديسيين"، مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، العدد 3، د.ت، جامعة مستغانم، ص 111.
- ⁵ ابن صاعد الأنديسي، المصدر السابق، ص 78-80.
- ⁶ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأنديس، الدار المصرية، د.ت، ص 13.
- ⁷ ابن بشكوال، الصلة، تح: إبراهيم الأبياري، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 1، 1989، ص 583، رقم الترجمة 866.
- ⁸ غازي الشمري، جعفر يايوش، المعرفة الطبية بين صراع السياسي والمعرفي، دار الغرب، الجزائر، 2004، ص 45.
- ⁹ موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن أبي صبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 12.
- ¹⁰ جعفر يايوش وغازي الشمري، الطبيب ابن زهر الأنديسي رائد التجريب، دار الكتب العلمية، الجزائر، 2016، ص 61.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص 61.
- ¹² المرجع نفسه، ص 61.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 61.
- ¹⁴ هو أبو عبد الله بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرياحي، أصله من جيان، انتقل جده إلى قلعة رياح، فنسب إليها، ينظر: أبو بكر محمد بن الحسم الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ص 311.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص 311.
- ¹⁶ بن أبي صبيعة، المصدر السابق، ص 485.
- ¹⁷ إيميلي سافاج، الطب - موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج 3، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 1151.

- ¹⁸ ابن عبدون، رسالة في الحسبة، ضمن كتاب ثلاث رسائل اندلسية، تح: ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ص 47 .
- ¹⁹ المصدر نفسه ، ص 46
- ²⁰ Max Mayhrof, «Equisse D'histoire De La Pharmalogie Et Botanique Chez Les Musulmans D'Espagne», Revista Al-Andalus, Vol03, 1935, p.p8-9.
- ²¹ أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، مج 2، ص 245.
- ²² ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ص ص 519-520، وأيضا: المقرئ، المصدر السابق، ص 245 .
- ²³ نهاد عباس زئيل، الانجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا -القرون الوسطى- ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2013، ص 254 .
- ²⁴ ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ص 521.
- ²⁵ أبو مروان عبد الملك بن زهر، كتاب التيسير في المداواة والتدبير، تح: ميشيل خوري، دار الفكر، دمشق، ط1، 1983.
- ²⁶ جعفر يايوش وغازي الشمري، الطبيب ابن زهر، المرجع السابق، ص 123.
- ²⁷ فمثلا عند ذكر داء الحية فيبدأ بتعريف هذا المرض بقوله : " و داء الحية انما هو طريق معوج يكون في الرأس ومنه يسقط الشعر" ثم يذكر اسبابه " ...فلقلة الخلط وتفاهته...." ، ينظر: ابن زهر، كتاب التيسير في المداواة والتدبير، المصدر السابق، ص 20 .
- ²⁸ ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ص 521، الخطابي، الطب و الأطباء في الأندلس الإسلامية، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 283.
- ²⁹ المرجع نفسه ، ص 283.
- ³⁰ محمد العربي الخطابي، الأغذية و الأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990، ص 82-162.
- ³¹ المرجع نفسه، ص 284.
- ³² نفسه، ص 284.
- ³³ جعفر يايوش وغازي الشمري، الطبيب ابن زهر، المرجع السابق ، ص 73.
- ³⁴ أبو مروان بن زهر، الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد، نقلا عن جعفر يايوش، المرجع السابق، ص 73.
- ³⁵ الخطابي، الطب و الأطباء في الأندلس الإسلامية، ج 2، ص 16.
- ³⁶ جعفر يايوش وغازي الشمري، الطبيب ابن زهر، المرجع السابق ، ص 73.
- ³⁷ ابن زهر، كتاب الأغذية، تح: محمد العربي الخطابي ، ضمن كتاب الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
- ³⁸ ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، المصدر السابق، ص 198.
- ³⁹ جعفر يايوش وغازي الشمري، الطبيب ابن زهر، المرجع السابق ، ص 75.
- ⁴⁰ ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، المصدر السابق ، ص 318.
- ⁴¹ المصدر نفسه، ص 16 .
- ⁴² مقدمة كتاب التيسير في المداواة والتدبير، المصدر السابق.
- ⁴³ ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، المصدر السابق ، مقدمة المحقق.
- ⁴⁴ ابن أبي صبيعة، المصدر السابق، ص 518، وأيضا: ايميلي سافاج، المرجع السابق، ص 1178، 1179.
- ⁴⁵ عمر فاروق الطباع، بن النفيس في تاريخ الطب، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2006، ص 105.
- ⁴⁶ ابن زهر، كتاب الاقتصاد، نقلا عن جعفر يايوش، المرجع السابق، ص 85.
- ⁴⁷ ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، المصدر السابق ، ص 409.
- ⁴⁸ المصدر نفسه، ص 410.
- ⁴⁹ مصطفى غالب، سلسلة في سبيل موسوعة فلسفية – أبقراط، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1986، ص 128.
- ⁵⁰ ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، المصدر السابق، ص 400.

⁵¹ ابن زهر، الأغذية، المصدر السابق، ص 161.

⁵² المصدر نفسه، ص 149.

⁵³ مقدمة كتاب الكليات في الطب : مع معجم بالمصطلحات الطبية العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.

⁵⁴ المصدر نفسه، ص 149.

⁵⁵ Said Benhmida, " Medicine Et Pharmacopée, En Andalusie : Regles Et Courant S", Hespris-Tamuda, Liv, 2019, p.p. 203-204.

⁵⁶ Ibid, p.204.